آخر ما خطه الراحل إحسان عباس

تقديم : خليل الشيخ *

يوم شرعنا في العمل لإصدار مجلة "التسامح"، كان إحسان عباس من أوائل الذين تمت مخاطبتهم للإسهام في هذا المشروع الحضاري، ليس بالنظر لما يمّثله إحسان عباس من قيمة معرفية كبرى فحسب، بل في ضوء ما يجسده على المستوى الفكري والإنساني من تسامح أصيل، ندر أن يجود الزمان بمثله. ولعله ليس من قبيل المبالغة على الإطلاق أن يقال إن المرء لا يكاد يقرأ عملا فكريا أو أدبيا أو نقديا من بين كتابات إحسان عباس الغزيرة، إلا ووجد نفسه أمام رؤى إنسانية متفتحة، وقيم عليا، تحرص على الحق والخير والجمال، وتقدمها جميعا في إطار علمي راق، بعيد كل البعد عن الادعاء والمبالغة، على الرغم من أن كتاباته كانت تمثل كشوفا علمية متميزة، وتلقي الأضواء الساطعة على جوانب تغدو فيما بعد نقاطا يتزاحم حولها الدارسون.

كنت أعلم ظروفه الصحية، وما كان يعانيه في آخر العمر من آلام، كان يتقبلها بابتسامته العذبة وتواضعه الجم وصبره المعهود، وإن رافق ذلك كله حزن لا تخطئه العين، لأن هذه الأوصاب كانت تحرمه من متعتي القراءة والكتابة، وهما المتعتان اللتان أفنى حياته فيهما باختياره ورضاه.

كنت أردد أمامه مازحا ما قاله أحد الفلاسفة الألمان من أن كل دون جوان ينتهي فاوست، وكل فاوست ينتهي دون جوان. فكان يضحك ويرى أن المقولة عميقة. لأن الفصل بين المعرفي والإنساني في التكوين البشري غير ممكن، ولأن البحث عن الحقيقة مسألة جوهرية في التكوين الإنساني، ولكنه كان يحيلني إلى "غربة الراعي" وأزهاره البرية السيرة والديوان اللذين يضمان معا آفاقا كبرى ظلت ملازمة له لا تفارقه على الإطلاق.

ولقد فوجئت على نحو إيجابي عندما رأيت البريد يحمل لنا في "التسامح" رسالة من عّمان- الأردن عرفت من النظرة الأولى أنها من الشيخ العلامة –غفر الله له وأجزل له المثوبة-. في الرسالة وجدت ثلاث مقالات هي:

1) حين كانت الأندلس تبحث عن هويتها.
2) عالم منسي: مسلم بن أبي مسلم الجرمي.
3) تحولات المتنبي التخييلية(المنشورة في هذا العدد).

وقد أرفقها الدكتور إحسان عباس بالرسالة الآتية التي كانت موجهة إليّ وننشرها الآن

لما تنطوي عليه من إشارات وأبعاد مهمة للدراسية في السنة الأخيرة، التي اشتدت عليه فيها وطأة المرض:

أخي العزيز أبا أنس

تحية طيبة وبعد:

فإنك تجد طيه بحثين وبحيثا لتنشر تباعا في أعداد مجلة التسامح، وهذا كله استجابة لرغبتك لا- طمعا في المكافأة. وقد جعلتها ترسل معا، لأن الناس لا يتركون لي وقتا أخلو فيه للكتابة، وقد انتهزت فرصة فراغنا من مؤتمر عقد في مؤسسة آل البيت وكتبت ما كتبت، وأرجو أن يكون مقبولا-. وقد صدني عن الكتابة بعد أن كلمتني بالتلفون ورقة صادرة عن المجلة فيها شروط وتوجيهات لا أستطيع العمل بها. فقد تعودت أن أكتب كل ما يجيش في خاطري. وأصغر موضوع قد يعيش معي، وأنا أديره في ذهني، وأتخيّل على كيفية البدء به مدة غير قصيرة.

أرجو أن يكون الخط واضحا غير متعب. لم أطبع البحوث لأن الطبع يقوم به غيري، وهو يكلفني كثيرا من الدنانير. ولكنني مؤمن أنه أرضتك هذه البحوث فإني أكون سعيدا.

واسلم لأخيك يا أقدر الناس على البحث المتقن، واعذر أخاك فإن الشيخوخة ليست شيئا تسهل مقاومته.

وأرجو أن تكون سعيدا حيث أنت، رغم ندرة السعادة في الواقع، ولكن ما يطمئنني أنك دائما تظل عزيزا، تحترم مكانتك وتحترم العلم والله يوفقك. إحسان عباس.

كان إحسان عباس شديد الإعجاب بالمتنبي، كثير القراءة في ديوانه، وكنت أسأله عن عدم كتابته عنه بشكل موسع، كما فعل عن الشريف الرضي، وبدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، على سبيل المثال. وكان يكتفي بالقول إن مجال القول في شاعرية المتنبي مازال واسعا، وإن أكثر ما كتب عنه شديد الصلة بشخصيته، أكثر من صلته بشعره. ولكنني كنت أرى أن إحسان عباس ينتمي إلى طبقة النقاد الذين لا- يحبون أن يستمدوا قيمتهم من موضوع الدراسة، فيغطي على ضعف التحليل النقدي من خلال الاحتماء بشخصية المبدع. وأذكر أن إحسان عباس في آخر لقاء معه في منزله قال لي.. إنه عندما يقرأ بيتي المتنبي في رثاء شبيب يهتز من الأعماق:

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان.

كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني.

وأحسب أن ذلك الحزن الشفيف الذي كان يستدرج الدموع من عيني الرجل الكبير، كان يتجلى في أن القلم فارقه رغما عنه في أيامه الأخيرة، وكان هذا القلم رفيق عمره، صاحبه في سنوات العمر كلها تأليفا وترجمة وتحقيقا.

ويصعب على القارئ المعاصر أن يحيط بالآفاق المتعددة التي ارتادها قلم إحسان عباس، فهي آفاق تجمع بين القديم والحديث، والعربي والغربي، فضلا عن توزعها على حقول معرفية شتى تجمع بين الشعر والرواية والنقد الأدبي والتاريخ والفقه والسيرة في عصور أدبية متعددة. لقد نهض هذا الرجل الفرد بما تعجز المؤسسات عن النهوض به. ولكنه بقي شأن العلماء الكبار، متواضعا، يطلب العلم دائما، ويرفض الجمود والوقوف عند نقطة بعينها. فكان مثالا حيا على رحابة صدر المفكر وسماحته. غفر الله له...

آخر ما خطه الراحل الكبير إحسان عباس

تحولات المتنبي التخييلية

من نافلة القول أن يقال إن عالم الشاعر هو الخيال رغم أنه يعيش كغيره من الناس في الواقع. حتى المذهب الواقعي في الفن لا يكون واقعيا صرفا بل لابد أن يُمزج بشيء من الخِيال. ولذلك كان وصف القرآن الكريم للشعراء غاية في الدقة حين وصفهم بأنهم (في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) (225) سورة الشعراء. هذا هو الحال لدى معظم الشعراء في كل عصر، والفرق بين واحدهم والآخر أن أحدهم يتغلغل عميقا في تضاعيف الخيال والآخر لا يصل إلى تلك الأعماق.

وفي قصص الجن والغيلان والكائنات التي تنتمي إلى عوالم غريبة تتم التحولات لدى شخوص القصة في يسر وسهولة، ويتغير سياقها تغيرا جذريا. وما دام الخيال هو عالم المبدع، سواء أكان قاصا أم شاعرا فإن التحولات لديه لا تتعدى صورا مجازية، بعد أن كانت تنتمي إلى عالم الواقع والحقيقة. فإذا جاز أن تنتقل هذه النقطة من الحقيقة إلى المجاز، وجدنا لدى المتنبي تحولات تخييلية شبيهة بما قد يحدث في الأحلام من تحولات. وهذه بضعة نماذج من ذلك أردت بها شيئا من التفكه ولم أقصد أن تكون بحثا جادا. وهذه التحولات تعتمد على رحابة الخيال والبراعة في التصوير وطواعية اللغة.

(1)

الإنسان الحصان

حين غادر المتنبي مدينة حلب إلى مصر، ألمت به حمى قوية اضطرته أن يلجأ إلى طبيب، ولكن الطبيب لم يكن دقيقا في تشخيصه فقال للمتنبي: "أقدر أنك أكلت شيئا من الطعام والشراب كان هو سبب مرضك. إذ رأى الطبيب بأنه إنسان كغيره من الناس –في الحقيقة والشكل- فظن أن التخليط في الأكل هو الذي أمرضه. لكن المتنبي كان في نظر نفسه حصانا "أضر بجسمه طول الراحة والجمام". وأنه قد فارق عادته في الرياضة والتدريب، وربط رسنه إلى وتد، وكان المرس قصيرا لا يمكنه من أكل النباتات، ولا يقدم له العليق، وذلك كله عكس تشخيص الطبيب، فلو أنه اكتشف السبب الفعلي لقال له إن المرض إنما نشأ عن عدم الأكل. على أنه حصان غير عادي، فإنه رغم انعدام الطعام لم يمرض صبره، وأنه رغم الحمى لم تُجر الحمى على عزمه. إن الإصابة بالحمى كانت

حقيقة لأنه وصفها بدقة حين قال فيها:

أراقب وقتها في كل وقت مراقبة المشوق المستهام

كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام

ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك في الكرب العظام

فهذا الوصف يحدد أي نوع من الحمى هي، فالحمى في حال المتنبي ليست جزءا من التحولات التخييلية، وإنما كان يرمز بها إلى وضع من الضيق وخيبة الأمل وفقدان الصديق المواسي (وهو الطبيب في هذا الموقف). تسوية ظالمة حقا.

(2)

النجم الذي لا يلحقه عيب

عيوب الإنسان كثيرة قد يعجز المرء عن إحصائها، ولكن فيه عيبين لا يد له فيهما وقد لا يستطيع أن يتخلص منهما. وهما الشيب والهرم، وحتى ينجو من هذين العيبين بتحول في بعض اللحظات إلى "ثريا" لا يلحقها هذان العيبان.

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم

إنه مفرد كالثريا في سلامته من العيبين. على الرغم من أن الثريا مجموعة نجوم تحمل هذا الاسم، إنه مفرد لا- لأنه يكره إقامة صلة بينه وبين الناس، وإنما لأنه لا يجد صديقا مؤانسا، وهو قد دفعه سوء حظه إلى بلاد لا أنيس بها:

شر البلاد بلاد لا أنيس بها وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرّخم

إن المتنبي لا يشكو فقدان الصديق المؤانس وحسب بل يشكو التسوية الظالمة بينه وهو البازي القوي الأشهب الذي لا يفرق الناس بينه وبين طائر الرّخم إن يقع على الجيف.

(3)

"حصان يوبخ بني آدم"

في إحدى رحلات المتنبي زار الشاعر شعب بوان في بلاد فارس، وسحره الشعب وتمنى لو استطاع أن يطيل المكث فيه، ولكنه لم يفعل لأنه الفتى العربي الذي وجد نفسه غريب الوجه واليد واللسان، ولذلك قرر الرحيل عن جنة في الأرض لا- يتاح له رؤية مثلها، فمنح حصانه حتى التعليق على هذا الموقف وما فيه من تعارض وكان موفقا حين ترك الحديث لحصانه، فقد استنكر الحصان مفارقة جنة كهذه فتساءل الحصان "أعن هذا يسار إلى الطعان؟" ولم يلبث الحصان أن اكتشف السبب الوراثي، وهو أن آدم نفسه أخطأ

أو عصى ففارق الجنة، وورث بنوه ما تعلموه من أبيهم فأصبح ابتعادهم عن الجنات الجميلة عادة مألوفة لديهم:

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

لقد وفق المتنبي حين ترك الكلام لحصانه ذلك أنه أنقذ نفسه من أن يقول "أبونا آدم سن المعاصي.. الخ" ونفى عنه التناقض بين شغفه بالجمال ورحيله عن ذلك الجمال دون أن يتمتع به.

(4)

"نبوءة"

كان أبو العلاء المعري معجبا أشد الإعجاب بشعر المتنبي حتى إنه كثيرا ما حاول أن يبني القصيدة بناء محكما –كما يفعل المتنبي- ولكن شخصية المعري كانت تختلف عن شخصية المتنبي في عدم التكسب بالمدح وعدم المغالاة في الفخر الذاتي وغير ذلك من الصفات، التي لا يشتركان فيها، وهي كثيرة. ولهذا الإعجاب سمى المعري شرحه لديوان المتنبي "معجز أحمد" لما أراد أنه يشرحه أو يعلق على بعض قصائده. وكان المعري يشعر أن المتنبي عناه حين قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

فلفظ الأعمى –المعرفة بأل- كانت توهم المعري أنه هو المقصود بما جاء في البيت. ولم تكن هذه النبوءة من تحولات المتنبي، لأن لفظة الأعمى تشير إلى كل من فقد النظر، وإن فقدان النظر لم يحل بين فاقده ورؤية أدب المتنبي، ولكنها جرى تحويلها على يد المعري الذي كان نظره إلى شعر المتنبي جديدا رغم فقدانه.

(5)

آسٍ جبان ومبضع بطل

قد مر بنا في أول تحول في هذا القول أن الطبيب الذي حكم بأن مرض المتنبي نشأ عن تخليطه في الطعام والشراب كان طبيبا جاهلا. وحين فُصدَ بدر بن عمار كان الطبيب جبانا لأنّه تنازل عن بطولته للمبضع، فجار المبضع على المقصود، فالتقى على بدر اثنان:

عذر الملومين فيك أنهما أس جبانٌ ومبضعٌ بطلُ

ولكن هذين الملومين لا يستحقان هاتين الصفتين، وذلك أن بدر بن عمار لم يبق له إلا قليل من العافية، فجاءت العلل تجتدي هذا القليل الباقي من العافية، وبدر سخي جواد لا يضن بما يسأله، فجاد بما تبقى لديه من العافية، فاضطربت الأمور التي كانت به مطمئنة:

كتيبة لست رَبها نَفَلَ وبلدةٌ لستَ حُلْيَها عُطلُ

(6)

"رومنطيقي حزين يتحول إلى صخرة"

قد لا يختلف اثنان على أن المتنبي شاعر كلاسيكي جزل العبارة، متقن الصياغة، فخم الإيقاع، ولكنّه في بعض المواقف يغدو امرءا رومنطيقيا حزينا، ويفقد ما يكفّ عنه تسلط الحزن، ويمنحه بعض البشاشة والسرور، والأبيات الآتية جزء من قصيدة قالها في هجاء كافور هجاء مقذعاً. فحزن المتنبي على نفسه التي ألجأته إلى ذلك المضيق المعتم:

لم يترك الدهر من قلبي ومن كبدي شيئا تتيّمه عين ولا جيدُ

يا ساقيَّ أخمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما همّ وتسهيدُ

أصخرة أنا مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الأغاريدُ

إذا طلبت كميت النفس صافية وجدتها وحبيب النفس مفقودُ

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني بما أن باك منه محسودُ

فهذه الأبيات ترسم صورة لشاعر رومنطيقي استبد به الحزن لأنه فقد الإحساس بالجمال، وفقد الحبيب وتغير مذاق الخمر (وهي كناية). ويحس أنه أصبح صخرة لا تحركه الحوافز ولا تثير لديه الإحساس بجمال الأشياء، وهكذا تحول شاعر الكلاسيكية إلى شاعر من عالم آخر، وهو ناقم على نفسه التي أذلته ليتعامل بالمدح والهجاء مع كافور، وهو على ذلك محسود على ما يجده تافها، يكاد يبكي من تفاهته. ولم يكن هذا التحول الوحيد لدى المتنبي من الكلاسيكية إلى الرومنطيقية، بل هناك نماذج أخرى تشير إلى مثل هذا التحول، وهو تحول طبيعي بسبب ظروف الحياة نفسها.

(7)

تحولات أسد نبيل

ظهر عند بحيرة طبرية أسد ورد يصف المتنبي شدة زئيره بأنه إذا زأر بلغ زئيره الفرات شمالا والنيل جنوبا –على سبيل المبالغة-. ولكنه حين يصفه وصف رؤية لا وصف سماع، يرسم له صورة لم تعد هي صورة أسدٍ عادي. بل صورة لأسد جديد تحول عما عرف به من شكل (بسبب تجمعه وتحفزه للوثوب) ومعرفته بأنه يواجه شخصا لا يقاوم:

ما زال يجمع نفسه في زَورِه حتى حسبت العرض منه الطولا

ويدقُ بالصدر الحجار كأنه يبغي إلى ما في الحضيض سبيلا

وكأنَّ غرته عين فأدنّى لا يبصر الخطب الجليل جليلا

أنف الكريم من الدنيّة تارك في عينه العدد الكثير قليلا

هذا الوصف الدقيق في متابعة الحركات المرئية يشبه التصوير الفوتوغرافي. لكن هذا الأسد تحول بما لديه من أنفة وكرم نفس إلى أن يصبح فارسا يخشى العار، لأن العار عضاض "وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا". لكن قوته للأسف خذلته فلجأ إلى التسليم بعد أن قبضت منيته يديه وعنقه، فكأن خصمه الإنساني وجده مقيدا بأغلال.

ليست هذه التحولات وقفا على المتنبي، بل هي حالات يتعرض لها أبطاله أيضا من إنسان ومن طلب مزيدا من هذه التحولات وجدها في شعره.

وأحبّ أن أعيد تذكير القارئ بأن الوقوف عند هذه التحولات وما تنطوي عليه من صور، ليست دراسة نقدية، وإنما هي مجموعة خواطر عرضت لي. أحاول بها أن أذكر ببعض مواقف المتنبي بعد أن ابتعد عنا كثيرا في أدغال الشعر الحديث، وأن أتلمس في هذا الشعر مدى القدرة على تصوير حالات شديدة التباعد والتنوع.

****

*) تقديم مستشار التحرير.